كيري وبوش

الاختلاف علنا . . الاتفاق سرا ! !

✍ مـــمـــدوح الشـــيخ

عواصم كثيرة في العالم اعتادت أن تحبس أنفاسها انتظاراً لنتيجة انتخابات الرئاسة الأمريكية وعواصم أخرى اعتادت أن تكيف علاقاتها بالولايات المتحدة على الخطاب السياسي لأحد الحزبين الأمريكيين وملفات عديدة يخضع وضعها في صدارة اهتمامات الإدارة الأمريكية أو دفعها لزوايا النسيان لنتيجة هذه الانتخابات . ومنذ حرب العراق والإعلام العربي لا يكف عن تفسيرها " تفسيراً انتخابياً " ساذجاً وأحيانا – يكون مضللاً – وكأن قرار الحرب على العراق لم يصدر إلا لوجود رئيس جمهوري في البيت الأبيض وهو تفسير يغفل جوانب كثيرة في مقدمتها أن في الولايات المتحدة تقاليد سياسية تتصف بقدر كبير من الثبات بغض النظر عن الانتماء الحزبي لساكن البيت الأبيض ، يضاف إلى ذلك أن مفهوم " المصالح القومية الأمريكية " شديد الوضوح في أذهان الفرقاء المتنافسين انتخابياً و لم يكن وسيلة لاستدرار أصوات الناخبين . صحيح أنه مفهوم إمبريالي لكن هذا مستوى آخر للتحليل ليس هذا محله .

دولة التنظيم السري

وقد عرفت الولايات المتحدة دائما بوصفها دولة المؤسسات وكل تأثير يمكن أن تلعبه قوة سياسية أو اقتصادية للتأثير في القرار السياسي يتم من خلال الآليات القانونية لدولة المؤسسات ، وفي ظل دولة المؤسسات المحكومة بالتنافس

الديموقراطي يكون العمل السري مفرداً مستبعداً من القاموس السياسي ، وقد شهدت بريطانيا قبل سنوات جدلاً علنياً بشأن انتماء بعض ضباط الشرطة البريطانية للمحافل الماسونية وخاض وزير الداخلية البريطاني – آنذاك – معركة كبيرة لإلزام الضباط بالإعلان عن أية صلات يمكن أن تربطها بهذه المحافل لوجود شبهات في أن هذه الارتباطات التنظيمية تؤثر في حياد هؤلاء الضباط الذين يفرض عليهم هذا الانتماء التنظيمي مساندة كل من ينتمي إليه – ربما على حساب القانون – وبالتالي تتناقض السرية مع أبسط مقتضيات الشفافية .

ولأن معركة الرئاسة في الولايات المتحدة معركة " كسر عظام " من الطراز الأول ، وهي معركة تدار بآلة إعلامية وسياسية هي الأضخم والأكثر كفاءة من نوعها في التاريخ فإنها تكون بازاراً مفتوحاً للفضائح والتسريبات ، وبعض هذه التسريبات تتجاوز أهميتها البعد السياسي المباشر لها وتتجاوز ما تثيره – أو ما تشبعه من فضول – لدى جمهور الناخبين/المستهلكين للمادة الإعلامية . فبعض ما تكشف عنه حروب هذه المنافسة ذو دلالات شديدة الأهمية على الجانب غير المرئي من ماكينة السياسة الأمريكية التي تفترض الضوابط القانونية أنها تدار بشفافية تامة بينما تؤكد الخبرة البشرية أن الشغف بالسرية ليس مجرد عرض لأمراض التفسير التآمري ، وأن السياسة في أمريكا كما في غيرها هي دائما كالتعامل مع جبال الجليد تدل القمة الطافية على سطح الماء على وجودها تحت السطح! .

العظمتان والجمجمة

" العظمتان والجمجمة " اسم جمعية سرية أمريكية كشف مؤخراً (جريدة الشرق القطرية ١٣ مارس ٢٠٠٤) عن أن المرشحين الديموقراطي جون كيري والجمهوري جورج دبليو بوش عضوان فيها ، والمعلومات المتاحة عن هذه الجمعية بدأت بسؤال وجه للمرشح جون كيري في ٣١ آب/أغسطس الماضي في البرنامج التلفزيوني الشهير " واجه الصحافة " على شبكة " إن بي سي " عن مغزى كونه يشترك مع الرئيس الأمريكي في عضوية هذه الجمعية وأجاب كيري : " لا شيء إنه أمر خاص " ! .

وفي الثاني من فبراير كتبت الصحفية الأمريكية المعروفة إليزابيث بوملر في عمود للرأي في النيويورك تايمز قالت فيه : " إن من قبيل المصادفة أن يواجه عضو في جمعية سرية عضواً آخر في الجمعية نفسها ، وسوف يقدم ذلك وجبة دسمة لأتباع نظرية المؤامرة ، ولكن هذه الجمعية تختار كل عام ١٥ طالباً فقط من صفوة الطلبة في جامعة ييل العريقة " . وفي السابع من فبراير وُجِّهَ السؤال نفسه في البرنامج نفسه للرئيس الأمريكي فقال : " إنه شأن سري ولا أرغب في الحقيقة في أن أتحدث عنه " ، وعندما سأله مقدم البرنامج عن الرقم ٣٢٢ (وهو رمز من رموز هذه الجمعية) بدأ بوش يتحدث عن أمور أخرى ، وكان ملفتاً أن يكرر عليه السؤال مرة ثالثة فقال بوش : " لاشيء " ثم انتقل مباشرة للحديث عن أداء الاقتصاد الأمريكي! .

وفي سيرته الذاتية " مسؤولية يجب تحملها " التي نشرها وقت أن كان حاكماً لتكساس قال بوش إنه التحق في السنة الدراسية الأخيرة بجامعة ييل بجمعية " العظمتان والجمجمة " وأضاف : " إنه أمر سري وخاص ولا أستطيع أن أضيف شيئاً بشأنه " ، وبطبيعة الحال يثير تساؤلاً مهماً بشأن ما يعتبره المجتمع الأمريكي " محرمات " في الممارسة السياسية وبخاصة إذا قارنا بين انخراط بوش في جمعية سرية وتورط كلينتون في علاقته مع مونيكا لوينسكي .

مصنع الصفوة

المرجع الرئيس في التعرف على طبيعة هذه الجمعية السرية كتاب كلف مؤلفته مستقبلها المهني إذ انتهت علاقتها بمجلة " نيويورك " الأمريكية وكانت من أهم كتّابها ، الكتاب هو : " أسرار المقبرة : العظمتان والجمجمة – الطرق الخفية أمام الصفوة للوصول إلى السلطة " والمؤلفة المؤرخة الأمريكية ألكسندرا روبنز وهي أيضا خريجة جامعة ييل وكانت عضواً في جمعية سرية أخرى ! . ومع ظهور اسم الجمعية على خلفية الصراع الانتخابي عادت ألكسندرا للأضواء ، وفي حوار إذاعي قالت إنها لم تنشر في الكتاب كل ما تعرفه عن هذه الجمعية التي أسسها عام ١٨٣٢ ويليام راسل الشاب المنحدر من أسرة فاحشة الثراء بهدف : " دعم قدرة أبناء العائلات على مؤازرة بعضهم بعضاً في الحياة العامة " ، وقد

أنشأ الجمعية على غرار جمعية ألمانية مشابهة اسمها " ألومينياتي " عرفها في رحلة لألمانيا كان فيها في ضيافة أسرة ألمانية ثرية ، وهناك تشابه تنظيمي كبير بين الجمعيتين . ولا يتجاوز عدد الأعضاء الأحياء اليوم من جمعية " العظمتان والجمجمة " ٨٠٠ شخص منهم نحو ٢٥٠ شخصاً يحتلون مواقع مهمة في الإدارة الأمريكية والكونجرس والباقون يديرون مصارف وشركات ضخمة وأجهزة إعلام . ومنذ التخرج من الجامعة تتغير طرق الاتصال بين أعضاء الجمعية وقد كان الرقم ٣٢٢ أحد رموز الاتصال بين الأعضاء .

وبعيداً عن الطقوس والشارات والخلفيات العقائدية التي لا يكفي المعلن منها للبناء عليه تبقى دلالات مهمة لما هو معلن . أولها أن الهدف الذي يقال إنها من أجله أنشئت قد لا يكون الهدف الحقيقي فعبر ما عرفناه من تواريخ الجمعيات السرية في العالم كالماسونية والحشاشين وفرسان المعبد والصليب الوردي والكوكلوس كلان وغيرها ، كان هناك دائماً " عدو " ومخطط ما يستهدف الانتصار على هذا العدو ، وهذا غير واضح من المعلومات المتوافرة ، فإذا كان الهدف المعلن هو نفسه الحقيقي فإن هذا يعني أنها ترجمة غير مألوفة لأنماط التضامن الطبقي وهو فضلاً عن ذلك هدف لا يستحق كل هذا العناء لإخفائه .

أما الدلالات السياسية فيأتي في مقدمتها أن ما تفرضه الديموقراطية من عمليات تغيير دائم ليس سوى وجه واحد للعملة يقابله من الثبات والاستمرار قد يكون بعضها سرياً . كما أن كون المتنافسين على منصب الرئيس في الانتخابات القادمة تجمعهما رابطة تنظيمية من هذا النوع يعني – على الأرجح – أن بينهما مساحات اتفاق تفوق مساحات الاختلاف وأن السياسات الأمريكية مرشحة للاستمرار في حال وصول كيري الديموقراطي للبيت الأبيض ، وهو احتمال ينبغي أن يأخذه في الحسبان صناع القرار العرب فبعضهم يسوف في التعامل مع ملف التغيير في الشرق الأوسط انتظاراً لتغير نوعي في السياسة الأمريكية يؤدي إليه فوز كيري المحتمل ، وبعضهم يراهن على دور أمريكي أقل انحيازاً للكيان الصهيوني .

لكن ما ينتظرهم في الحالتين – غالباً – العظمتان والجمجمة !!